من أسرار القرآن

الأستاذ علي النجدي ناصف

يحفل القرآن الكريم بألوان من الأسرار العجيبة ، والإشارات اللطيفة في مذاهب التعبير ، من الإيجاز والإطناب ، والإبهام والإيضاح ، وفي نظم الأسلوب ، وقياس الفواصل ، وانتخاب المفردات ؛ فيأتلف من ذلك كله نمط معجز فريد من البيان ، عذب النغم ، متساوق الإيقاع ، تسكن إليه النفوس ، وتخشع له القلوب .

وهو بعدُ ينطوي على ضروب من الدلالات : منها البادية البينة ، تُنال من قريب ، وبغير جهد مبذول . ومنها المستكنة الموحية ، تنال بالمحاولة ، وصحة النظر ، وإعمال الفكر . وذلك جانب آخر من جوانب إعجازه : أن جعل لكل امرىء منه نصيباً مقسوماً . فهو يعطي العامة ـ على اختلاف المدارك وتفاوت الطوائف ـ وهو هو بمكانه الأسمى من البلاغة والإعجاز ؛ ويعطي الخاصة ، كل على مقدار ما آتاه الله من نفاذ البصيرة ، واستواء الفطرة ، واستقامة النهج ، ولكن في غير تعمية ولا إلغاز .

وسأورد هنا نماذج من مفرداته التي تكرر ذكرها فيه ، وتغيرت صورها بتغير المقام الذي جيء بها إليه ، ثم أحاول ـ ما استطعت ـ أن أستخرج ما يكمن فيها من أسرار وإشارات :

فالطفل يذكر في القرآن ثلاث مرات بلفظ الواحد ، ومرة واحدة بلفظ الجمع : يُذكر مفرداً في قوله تعالى :

« يا أيُّها الناسُ إنْ كنتم في رَيْبٍ من البَعْث فإنّا خلقناكم من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تُرابٍ ثم من نُطْفةٍ ثم من عَلَقةٍ ثم من مُضْغةٍ مُخَلَّقةٍ وغيرِ مُخَلَّقةٍ لنُبَيِّنَ لكم ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسَمًّى ثم نُخرِجُكُمْ طِفلا (١) » .

وقوله :

« هو الذي خلقكُمْ منْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ثُمَّ من عَلَقةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفلا (٢) » .

وقوله :

« وقُلْ لِلْمُؤْمنات يَغْضُضْنَ من أَبْصارِهِنَّ ويَحْفَظْنَ فُروجَهُنَّ ولا يُبْدين زينَتَهُنَّ إلا ما ظَهَرَ منها ، ولْيَضْرِبْنَ بخُمُرِهِنَّ على جُيوبِهِنَّ ، ولا يُبْدين زينَتَهُنَّ إلا لبُعولَتِهِنَّ أو آبائِهِنَّ أو آباء بُعولَتِهِنَّ أو أبنائِهِنَّ أو أبناءِ بُعولَتِهِنَّ أو إخْوانِهِنَّ أو بني إخوانِهِنَّ أو بني أَخَواتِهِنَّ أو نِسائِهِنَّ أو ما مَلَكَتْ أيمانُهُنَّ أو التابعين غيرِ أُولي الإرْبَةِ من الرِّجالِ أو الطِّفْلِ الذين لم يَظْهَروا على عَوْراتِ النِّساء (٣) » .

ونحن إذ ننظر في هذه الآيات الكريمة نتبين أن الآيتين الأولى والثانية لا تتحدثان عن الأطفال في عمومهم ، وأيّاً ما كانت مرحلة طفولتهم ، ولكنهما تتحدثان عنهم أول عهدهم بدنيا الناس ، حين يخرجون إليها ، ويتنسمون هواءها . والأطفال حينئذ جمع في العدد ، ولكنهم واحد في الحقيقة والمعنى ، مهما تعددت أشخاصهم ، وتباينت صورهم وألوانهم ، وتخالف آباؤهم وأمهاتهم؛ لأنهم يتوحدون في سر الوجود ، وحكمة الخلق . أليسوا جميعاً على الفطرة البيضاء ، لا تفاوت بينهم فيها ولا خلاف ؟

وفي هذا المعنى يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

(١) سورة الحج : ٥ (٢) سورة غافر : ٦٧ (٣) سورة النور : ٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفِطرة ، فأبواه يُهوِّدانِهِ أو يُنَصِّرانه ، كما تَناتَجُ الإبل من بَهيمةٍ جمعاء ، هل تُحسُّ فيها من جدعاء[١] ؟» .

وهل تكون الهداية إلى الله والإيمان به إلا وحياً من الفطرة ، واستجابة لداعيها ؟ أوليس ذلك هو سر الوجود الأسمى ، وحكمة الخلق العليا ؟ بلى ، فما خلق الجن والانس إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين . قال تعالى :

« وما خَلقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلا ليَعبُدون[٢] » .

أما ما سوى ذلك من أحوالهم وأسباب معيشتهم فوسائل وأسباب لاطّراد الحياة ، وتتابع الأجيال ، إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ويقضي الله قضاءه في هذا الكون .

فالطفل إذاً بلفظ الإفراد أبلغ في هذا المقام تعبيراً ، وأصلح استعمالاً ؛ لأنه يوحي بالإفراد ما لا يوحي بالجمع ، وينبه إلى ما لا ينبه الجمع إليه .

والآية الثالثة تتحدث عن الأطفال فيمن تتحدث عنهم ، ممن يباح للنساء أن يبدين زينتهن لهم . ونلاحظ أنهم ذكروا في الآية بلفظ الجمع ، سواء الرجال منهم والنساء ، إلا الأطفال ، فقد ذكروا وحدهم بلفظ الواحد . وقد يتساءل هنا متسائل : أما يقتضي ظاهر الأسلوب ، ونسق التعبير أن يجري على الأطفال مثل ما جرى على الآخرين ، فيذكروا هم أيضاً بلفظ الجمع ؟

نعم ، هذا ما يمكن أن يتساءل عنه هنا متسائل ، ولكن إذا ظهرت حكمة هذا الخلاف ، والمعنى الذي يرمز إليه - لم يبق لهذا التساؤل مكان .

(١) الموطأ : ٢٤١ ، والمعنى أن المولود يولد على الفطرة ، ثم يغيره أبواه بعد ذلك ، كما أن البهيمة تولد تامة الخلق ، ثم تجدع بعد ذلك ، أي تقطع أذنها .

(٢) سورة الذاريات : ٥٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالاطفال هنا كإخوانهم هناك في الآيتين السابقتين ، أو يكادون ؛ وإن كانوا هنا قد بعدوا من عهد الولادة خطوات ، وقضوا من عمرهم سنين ، وأصبحوا في جملة الأمر وظاهره على حال غير حال الآخرين ؛ لانهم في الحكم والمنزلة مثلهم ، لا يزالون على سنن الفطرة من البراءة والطهر. أليسوا ـ كما وصفهم الله تعالى ـ من غير أولي الإربة الذين لم يظهروا على عورات النساء ؟ فهم لا يعرفون ما العورة ؟ ولا فيم خلقت ؟ ولا ما الفرق بينها وبين غيرها من الأعضاء ؟

إذاً كيف يصح في شرعة البلاغة والإعجاز أن يذكروا مع الآخرين بلفظ الجمع ، وهم ليسوا منهم ولا على شاكلتهم في قضية إبداء الزينة ، لهذا الوصف المميز الذي خصهم الله به ، تعبيراً عن الحقيقة والواقع ؟ فليذكر الآخرون اذاً بألفاظ الجموع ، على ما جرت به عادة الاسلوب في ظاهر الامر ؛ لتكون الالفاظ على مثل مدلولاتها ، ومطابقةً لحال كل منها دون تغيير . أما الاطفال فلهم شأن آخر ، وفيهم مزية يتفردون بها ، فليذكروا بلفظ الواحد خاصة ، تنبيهاً على ما تميزوا به ، واشارة اليه ، وغناء بإشعاع المفرد عن بيان سره بالالفاظ والعبارات .

فإذا بلغ الأطفال الحلم فقد شارفوا الرجولة ؛ وخطوا خطوة إليها ، فأخذت شخصياتهم تتنوع ، وخصائص نفوسهم تتميز ، واستحقوا إذا ذكروا أن يذكروا بلفظ الجمع ، ويعاملوا معاملة الرجال في الإسناد والخطاب ؛ لأنهم — وإن لم يبلغوا مبلغهم من نضج الشخصية ، واكتمال الموهبة — قد بعدوا عن الفطرة ، وفقدوا وحدتها وسمتها ، وهي — لا غيرها — الوحدة التي تجعل من جمعهم فرداً ، كما كانوا في حداثة العهد بالولادة ، والخروج من ظلمات البطون . وقد عبر القرآن الكريم عنهم على هذا النحو في قوله تعالى :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وإذا بَلَغَ الأَطفالُ مِنكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتأْذِنوا كما استأْذَنَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ [١] » .

فجعل مثلهم في الاستئذان كمثل الرجال الذين سبقوهم ، وبلغوا الحلم قبلهم ، وإن لم يكونوا وإياهم على سواء .

* * *

و « الخصم » كذلك من الكلمات التي استعملها القرآن مطابقة بلفظها للمراد منها ، وغير مطابقة . ويقول اللغويون عنها : إنها في الأصل مصدر ، لذلك يجوز استعمالها للمثنى والجمع بلفظ الواحد . وقد استعملها القرآن الكريم على الوجهين في قصة الملكين اللذين أرسلهما الله تعالى للاحتكام إلى داود عليه السلام ، حيث يقول :

« وهل أَتاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إذْ تَسَوَّروا المِحْرابَ إذْ دَخلوا على داوُدَ ففزِعَ منهم قالوا لا تَخَفْ ، خصمانِ بَغَى بعضُنا على بعض فاحْكُمْ بيننا بالحق [٢] » .

ونلاحظ أن الآيات تبدأ بسؤال النبي عن القصة ، وهل أتاه نبؤها العجيب ؟ وهو بدء يشبه أن يكون عنوانا لها ، فلا يعني السامع منه عدد أصحابها كم يكونون ؟ ولكن الذي يعنيه ، ويستشرف علمه هو نوعها ما هو ؟ فكان ما يتطلبه المقام ، وتقتضيه الحاجة بغير فضول : أنها قصة خصومة ، وليست قصة صداقة ومودة . ولو كان الخصم في مستهل القصة لا يُراد به بيان نوعها ، بل يراد به ذكر أشخاصها وتعيين عددهم - لذكر معهم داود عليه السلام ، فإن له في أحداثها من الشأن مثل مالهم.

---

(١) سورة النور : ٥٩ (٢) سورة ص : ٢١ و ٢٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهل يكون الفصل في الخصومة إلا من قاض يفصل ، وشخصين — على الأقل — يختصمان ؟

وعدلت الآيات بعد ذلك عن الإسناد إلى الخصم مفرداً أو مثنى ، وجعلته إليه جمعا فقالت :

« إذ تسوّروا المِحرابَ إذ دخلوا على داودَ فَفَزِعَ منهم ، قالوا لا تَخَفْ » .

وسرُّ ذلك — والله أعلم — أن داود عليه السلام كان حينئذ عاكفاً على عبادة ربه في المحراب . وكان منه لحرّاسه أمر سابق جرت عادته به : ألا يؤذن لأحد عليه وهو فيه ، لهذا منعوا الملكين أن يدخلا من الباب ، فكان أن تسورا المحراب ، وخلصا إليه على حين غفلة منه ، وهو عاكف فيه .

وطبيعي في مثل هذه الحال ألا يظن داود أو غيره ممن عسى أن يكون في مقامه — أن اللذين يريدانه فردان اثنان ، بل جمع كبير ؛ لأن المحراب منيع ، والحراس من حوله قيام ، فأتى لرجلين اثنين مهما أوتيا من قوة ، ورزقا من حيلة أن يتسنماه ، ويخلصا إليه بغير معونة قادرة ، تمهد لهما السبيل ، وتمدّ لهما الأسباب ؟

وطبيعي كذلك أن يفزع داود حين يراهما ، وأن يتصور أن قد قهر جنده ، وذهب ملكه . وما هذان الرجلان إلا رسولان أرسلا إليه من قبل من وراءهما ، أتياه ليفاوضاه في خطب جسيم . وهل تكون مفاوضة الغالب المنصور للمنهزم المغلوب إلا الضياع والاستسلام ؟ فلم يجد الملكان بدّاً من أن يهدئا أولاً من روعه . ويعيدا السكينة إلى قلبه ، حتى يمكن أن يستمع لهما ، ويفهم عنهما ما يقولان .

وما أحسب أن الآيات تصور هنا — والله أعلم — إلا ما سبق إلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهم داود ، وما خيل إليه أنه الواقع لا ما يراه رأي العين . فالإسناد إلى الجمع في هذا المقام هو وحده الذي يجمع كل هذه الأسرار ، وهو الذي يغنى به أولو الألباب عن التصريح ، وأن يتذوقوا له من الحلاوة ، ويجدوا فيه من المتعة والأنس ما لا يجدونه في المفرد . ولما أن عاد كل شيء في المحراب إلى سابق عهده ، وآن للخصم أن يترافعا إلى داود فيما قدما إليه — كان المقام لبيان العدد على حقيقته ، وفي واقع الأمر ، فهاهنا يتساءل السامع عنه ، ويود لو يعلمه ، بعدما علم من القصة ما علم ، ولم يبق منها إلا عدد الخصم وما يختصمان فيه . فكان قول الله عز من قائل :

« خَصْمانِ بَغَى بعضُنا على بعض .. » .

إذ لا تكون الخصومة من واحد ، فلو أغفل هنا بيان العدد — كما هو — لذهب الظن فيه إلى غير وجه ، ثم لم يرجع بما يريد . وليس ممكناً أن يذكر بلفظ الجمع لئلا يخالف الواقع ، ولا بلفظ المفرد بعد إذ عومل معاملة الجمع في التسور والدخول وحين الخطاب ، وإلا كان الأقرب إلى الظن أنه مفرد أريد به الجمع ، وأنهم سيحكمون داود في قضية متعددة الخصوم ، أو في قضايا مختلفة ، لكل اثنين منهم على الأقل قضية . ولا يزال الظن حائراً يترجح هنا وهناك حتى تبلغ القصة منتهاها ، في قوله تعالى :

« إنَّ هذا أخي له تِسْعٌ وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ » .

فتبدو له الحقيقة ، ولكن في غير مكانها الأصيل ، بعد أوانها الموعود .

وقد ذكر الخصم في القرآن الكريم مرة أخرى ، وفي مقام واحد أيضاً بلفظ المثنى أولاً ، ثم وصف وصف الجمع ، إذ يقول الله تعالى :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« هٰذانِ خصمان ٱخْتَصَموا في رَبِّهِمْ »(١).

والإشارة هنا بلفظ التثنية موجهة إلى المؤمنين في جانب، والكافرين في جانب آخر. فريقان يختلفان في الله عقيدة ورأيا، ولكل فريق مع ذلك جامعة تضم آحاده، وتجعل منهم جملة متماسكة كهيئة الفرد الواحد. هما إذاً فريقان يتواجهان كما يتواجه الشيء ونقيضه، حتى ليمكن أن يجعل منهما اثنان، إذ لا تفاوت بين آحاد كل في المذهب الجامع ولا خلاف.

ومن ثم كانت الإشارة إليهما بـ (هذان)، التي يشار بها إلى الاثنين. والفريقان بعد هذا أشتات متفرقون في الجدل وحين الاختصام في الله، كل له شخصيته المتميزة، تفكيراً في العقيدة، وتمثلاً لها، وإيماناً بها، وتعبيراً عنها. فمن مطابقة الكلام لواقع الحال وإحسان تصويره إشارة وإيماء أن يذكر الخصمان هنا بضمير الجمع، لا المثنى على ما يتراءى أنه الظاهر المألوف. وإذاً تكون الآية كما قالها الله جل ذكره:

« هَذان خَصْمانِ اخْتَصَموا في رَبِّهِمْ ».

مقولة في أوجز لفظ، وأصدق نظم، وفي أرفع منزلة من البلاغة، وأدلها على الإعجاز.

ويشبهها في هذا قوله تعالى:

« وإنْ طائفتان من المؤْمنين اقْتَتَلوا فأَصْلِحوا بينهما »(٢).

فها هنا طائفتان اثنتان في العدد، لكل منهما روابطها التي تجمع شملها، وسماتها التي تميزها وتدل عليها. لكنهما اذ تقتتلان ينفرط العقد، ويتبدد الشمل، كل فرد في طائفته عدوّ لفرد في الطائفة الأخرى،

(١) سورة الحج: ١٩ (٢) سورة الحجرات: ٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا يمنعه منه مانع اذا هو ظفر به ، انحيازاً الى طائفته ، واستجابة لداعية العصبية والتناصر ، فإذا هما على وحدة العقيدة في لبابها آحاد مختلفون ، بعضهم لبعض عدو .

أما حين الصلح فترجع الطائفتان الى التضامّ والالتئام ، فإذا هما جمع لجمع ، لأن الصلح لا يكون بين أفراد الجمعين ، ولكن يندب كلٌّ رسلًا ينظرون عنه في الصلح ، ويتحدثون باسمه فيه . فمن تمام الملاءمة ، وبلاغة العبارة أن تكون الطائفتان في القتال جمعا ، وأن تكونا من قبله وحين الصلح طائفتين اثنتين .

فالقرآن إذاً حين يراوح بين الكلمات مفردة وغير مفردة لا يكون ذلك منه مجرد أخذ برخصة لغوية ، ولكن قصداً الى سر من أسرار بلاغته ، ولطيفة من لطائف إشاراته .

القاهرة علي النجدي ناصف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net